

## دراسة

صار حضور المنجز النقدي الغربي اليوم أمراً شائعاً و دارجاً في المحصلة النقدية العربية التي وجدت نفسها غير قادرة على الإشاحة عنه، نظراً لثراء هذا المنجز و تنوعه و غياب أرضية نقدية عربية صلبة. سعى العديد من الدارسين و الباحثين العرب إلى محاولة تأسيس مشاريع نظريات نقدية تقوم على أسس رصينة، فانقسموا إلى تيارات مختلفة كل حسب توجهه. فترجم بعضهم ما ألفه الغربيون في هذا المجال و نقلوه، و اقتصر جهد بعضهم الآخر على تلقي مقولات المناهج و تطبيقها بما يشبه التمرين المدرسي، بينما راح آخرون يتمثلون بوعي كبير المنجز الغربي و يحاولون تطويره و تكييفه و الإضافة إليه قدر المستطاع في تعاطيهم مع الإبداع العربي قديمه و حديثه.

و كانت أولى بدايات الاحتكاك مع جيل الرواد مثل: أحمد ضيف و طه حسين و محمد مندور و غيرهم ممن حاولوا تطبيق آليات المنهج التاريخي على الأدب العربي. و قد تطورت تلك الجهود من التعريف و التمثل و التطبيق إلى محاولة إرساء دعائم مشاريع نقدية عربية مكتملة، و تبنى هذه الرؤية العديد من النقاد العرب المعاصرين أمثال: جابر عصفور و عبد الله الغدامي و عبد الكبير الخطيبي و كمال أبو ديب و عبد السلام المسدي و عبد الوهاب المسيري، و الناقد المغربي "عبد الفتاح كيليطو" من هؤلاء، بل إنَّ جهده في هذا المجال يعدّ علامة فارقة من خلال اهتمامه بمقاربة الثقافة العربية و عيون الأدب الكلاسيكي العربي برؤية نقدية حديثة تستلهم مرجعيتها من مناهج نقدية غربية، و تستثمر طاقات معرفية ثرية و تستدعي مهارات كبيرة في إعادة قراءة نصوص عربية تراثية و معاصرة.

تبرز تجربة "عبد الفتاح كيليطو" النقدية في قراءته للتراث بطريقة متميزة و واعية، بل إنها تشكل في منجزه قضية مركزية. و قد تجلّى ذلك في كتبه العديدة التي أكتب فيها على التراث العربي نشره و شعره، و إن كان تركيزه على النشر أكثر، و على السرد بوجه خاص، من خلال دراسته لمقامات الهمذاني و الحريري و ابن نايقا و ابن دريد و مؤلفات الجاحظ و نصوص أبي العلاء المعري و غيرها من الأعمال التي لم يقنع

باستنطاق ما تحمله من أبعاد فلسفية و اجتماعية و سياسية كانت دراسات عربية قبله قد تناولتها، و إنما مضى إلى استكناه ما تحتزنه من دلالات و ما تحيل عليه من قراءات مفتوحة و متجددة.

فكتاب "ألف ليلة و ليلة"، ذلك الموروث الذي تمّ تناقله بين أمم كثيرة، و شاعت ترجماته و تأويلاته و تلقاه جمهور من العامة و الخاصة، لم يقرأه "كيليطو" إلا ليعيد فيه روحاً أخرى كانت قد غيبتها قراءات سابقة، و يلفت الانتباه إلى ما وصلت إليه دراسات غربية معاصرة بشأنها، كان قد استعان بها و طوّعها لمنح هذا السفر الألق الذي هو جدير به.

و مثل السرد، مثّلت اللغة حجر زاوية في دراسات "كيليطو"، تعرض لها بحس نقدي مزج فيه بين القديم و الجديد، فانطلق من الحفر في جذورها التاريخية و بداياتها الأولى، فوقف عند لغة آدم عليه السلام، كما طرح مسألة اللغة باعتبارها إحدى القضايا الراهنة و التي ترتبط بالهوية، و الأنا و الآخر، و الازدواجية اللغوية و الترجمة، مما قاده إلى الوقوف عند الأدب المغربي المكتوب باللغة الأجنبية و الذي يركز على القضايا نفسها.

هذا، فضلاً عن بحوث و مقالات و دراسات طالت الشعر والنثر و الفلسفة و الثقافة الشعبية و الثقافة العاملة و غيرها مما تزخر به الثقافة العربية، و ممّا كان مجالاً خصباً لتجربة نقدية خاضها "كيليطو".

و بناء على هذا جاء عنوان البحث "التجربة النقدية عند عبد الفتاح كيليطو بحث في آليات التفكيك و النقد الثقافي"، و من أجل التعمق في هذا الموضوع و الإحاطة بأبعاده طرحنا هذه الإشكاليات التي نأمل من خلالها وضح الرؤية :

- ماذا قدم عبد الفتاح كيليطو للنقد العربي؟ و كيف؟
- إلى أي مدى استطاعت تجربته النقدية أن تحدث تغييراً في إعادة قراءة التراث و التعاطي مع النصوص؟ وما الأثر الذي تتركه مثل هذه القراءات؟ و هل ما قدّمه في مسألة إعادة القراءة كان نتيجة تطبيقه مقولات منهجية بعينها أم عصارة فكر استنار بقراءات متعددة المشارب، متينة الدعائم؟
- وتبقى العديد من الإشكاليات الأخرى مطروحة نظراً لطرافة الموضوع وتشعبه.

و الجدير بالذكر أن ثمة دراسات تناولت منجز "كيليطو" و أشادت بجهوده لكنها على جديتها لم تتناول كل أعماله و لم تشمل جوانب بعينها، و من ذلك: كتاب "الأدب و الميتافيزيقا" لعبد السلام بنعبد العالي و مجموعة من المقاربات حول أعمال كيليطو لباحثين تضمنها كتاب: "عبد الفتاح كيليطو متاهات الكتابة"، و كتاب "كيليطو موضع أسئلة" (حوارات) لأمنية عاشور، دراسة ضمن كتاب "ترويض الحكاية" لشرف الدين ماجدولين. بالإضافة إلى عدة مقالات أخرى.

و قد استدعت الدراسة اعتماد بعض مقولات نقد النقد كمنهج لمقاربة أعمال عبد الفتاح كيليطو، مع الاستعانة بآلية التأويل في بعض المواضع.

و لمناقشة الموضوع ارتأيت أن أقسم البحث إلى مقدمة و أربعة فصول و خاتمة، وقد اختص الفصل الأول الموسوم بـ"التجربة النقدية الأدبية العربية المعاصرة و مساءلة التراث"، بالحديث عن الانفتاح على المناهج النقدية الغربية من خلال تجارب مجموعة من النقاد العرب في التعااطي مع التراث، و اتخذت أولاً مقاربة النثر - و السرد تحديداً - كما آثرت الحديث ثانياً عن دراسة التراث الشعري، و قد تطرقت أيضاً لمساءلة التراث بلغة الآخر (الفرنسية). و نظراً لعدم اتساع المجال للإلمام بكافة الممارسات النقدية العربية للتراث، فقد فضلت انتقاء نماذج فقط، و الوقوف عندها من أجل الإحاطة بالموضوع، و طرحه بالتفصيل مع الناقد عبد الفتاح كيليطو.

أما الفصل الثاني المعنون بـ"آليات التأويل في السرد العربي القديم" فقد تطرقت فيه لمقاربة عبد الفتاح كيليطو للسرد العربي القديم الواردة في عدة مؤلفات، حيث تم الوقوف عند دراسة كيليطو لنماذج من "ألف ليلة و ليلة" و "كليلة و دمنة" و مقامات كل من "الهمذاني" و "الحريري"، حيث تم التركيز في هذا الفصل على الآليات التي استخدمها كيليطو في قراءته للتراث السردية، بالإضافة إلى الوقوف عند طريقة كيليطو في الطرح و التحليل و عملية انتقاء النصوص نفسها.

و في الفصل الثالث الذي يحمل عنوان "الممارسة النقدية و خطاب اللغة بين التأويل و التفكيك" فقد تناولت فيه الدراسات التي خصّ بها كيليطو اللغة من خلال عدة قضايا، فدرست أولاً اللغة و الهوية، و تعرضت ثانياً للازدواجية اللغوية كما تم التعرض لقضية الترجمة و دورها في نشر الثقافة

و تحديد الفكر، و عني هذا الفصل بإبراز تميز كيليطو في مناقشة مسألة اللغة من خلال التطرق إلى أصولها و غيرها من القضايا و البحث في الطريقة النقدية التي اصطنعها و المرجعيات التي وجّهتها.

أما الفصل الأخير الموسوم بـ "النص الثقافي و تنوع المرجعيات" فقد درست فيه النص الثقافي: و الذي اخص بمقاربات كيليطو حول بعض كتابات "الجاحظ" و "ابن رشد" و بعض أعمال "أبي العلاء المعري"، باعتبارها نصوصاً ثقافية، كما: تناولت تطور الممارسة النقدية لعبد الفتاح كيليطو و تغير توجهه النقدي من دراسة القديم إلى البحث في الحديث، و أخيراً تطرقت لمختلف مرجعيات الناقد التي تخللت ثنايا مقارباته، و ثوت في هوامش مؤلفاته، و التي تتراوح بين ما هو تراثي و ما هو غربي حديثي .

و تجدر الإشارة في هذا الموضوع إلى أن عدم تضمن الدراسة مقارنة كيليطو للشعر يعود إلى تشعب القضايا التي تناولها و تعددها و أهميتها مقارنة بقراءته الشعر.

و كانت الخاتمة خلاصة النتائج المتوصل إليها من البحث.

سعت الدراسة إلى إبراز أهم مميزات التجربة النقدية الأدبية المعاصرة، و التي تدور حول محور أساسه الانفتاح على المناهج النقدية الغربية المعاصرة، و استثمارها في قراءة التراث العربي، و قد توصلت إلى جملة النتائج التالية:

حمل لواء التعريف بالأدب العربي القديم شعره و نثره العديد من النقاد المعاصرين أمثال: عبد الله إبراهيم و سعيد يقطين و عبد الله الغدامي و كمال أبي ديب... و غيرهم و ذلك من خلال دراسته بأدوات منهجية و آليات نقدية جديدة مستوحاة من المناهج الغربية، و لم تقتصر العناية بالتراث و مساءلته على اللغة العربية، و إنما كانت المغامرة حين تم ذلك بلغة غير لغته (لغة الآخر)، و تجلّى هذا في تجربة الناقد "جمال الدين بن الشيخ" الذي جدّد النظر إلى الشعر العربي القديم، و بالتالي جدّد الماضي و أعاد إحياءه من جديد.

أما عبد الفتاح كيليطو فقد طمح من خلال مقارباته للتراث العربي، بمختلف فروع شعرا و نثرا، ما هو مركزي و ما هو هامشي... إلى إضاءة بعض جوانبه الخفية، و بيان الخصائص المضمرة التي يتوافر عليها، و ذلك من أجل إيقاظه و ضخ دماء جديدة فيه. بالإضافة إلى أن الناقد وجد ضالته في تلك

الكتابات القديمة باعتبارها مقياساً لتجريب آليات المناهج النقدية الحديثة، و معرفة مدى ملاءمتها للنصوص و السياقات المختلفة عن سياقها الذي ظهرت فيه.

درس كيليطو السرد العربي القديم موازاة مع الثقافة الغربية، فكثيراً ما يستحضر نصوصاً غربية، إما مقارنة أو استشهاداً، فيحاول استنطاق النصوص السردية، ليصل إلى تشبيه الملحمة بالمقامة العربية، و بالتالي يستخلص تشابه الإبداع الإنساني، و بذلك يسعى إلى التأسيس لحوار الثقافات.

تجسد مقاربات (كيليطو) حداثة نقدية، فهو يتناول التراث العربي القديم بلغة و مناهج أجنبية، يضيف من خلالها بعداً جديداً على الأدب الكلاسيكي، بفضل دقة التحليل و براعة التأويل، فيقدم لنا التراث في صورة جديدة تبهر العربي و الغربي على حدّ سواء.

ينبع تميز التجربة النقدية لدى (عبد الفتاح كيليطو) أساساً من إتقانه عدة لغات أجنبية إلى جانب اللغة العربية، الأمر الذي ساعده للولوج إلى أعماق التراث العربي و مساءلته، كما خاض غمار المعرفة الغربية، ممّا جعله منفتحاً على مختلف الثقافات، و قد انعكس هذا في أغلب مقارباته. كما جعل موضوع اللغة، و تعدّد اللغات محورياً أساسياً لبعض مؤلفاته، و لم يقف عند هذا الحد و إنّما تبلورت مناقشته لقضية اللغة لتصبح مسألة هوية متعلقة بالأنّ و الآخر.

يقوم (كيليطو) بلفت انتباه القارئ إلى أمور مهمشة، من خلال إثارة الإشكاليات دون الإجابة عنها، و التي يسعى من خلالها إلى خلخلة بعض المفاهيم و القضايا المركزية التي حسم حولها الخلاف. كما يعمد إلى المقدمات الاستهلالية، و أغلبها ذات خلفية غربية، مما يفسح للقارئ نطاقاً واسعاً للتأويل.

و هذا ما جعل كتابة (كيليطو) تكتسي "طابعاً رمزياً".

تتسم كتابة (كيليطو) بميزة أساسية تتمثل في: تعدد القضايا التي يطرحها و تنوعها، فهو لم يخص أيّاً من مؤلفاته بموضوع واحد، ما عدا كتاب "المقامات" و هو رسالة بحثه، و كذلك كتاب "الغائب"، كل كتاب تجتمع فيه مختلف المرجعيات، سواء ما تعلق بالتراث العربي و ما يحمله من تاريخ و فلسفة

و لغة

و أدب، أو ما يتصل بالثقافة الغربية و مناهجها و أعلامها، فكيليطو يدرس كل موضوع و يقلبه على مختلف أوجهه، و في كل مرة يعطيه بعدا جديداً يختلف عمّا ورد في مؤلف سابق.

إنّ إخفاء (كيليطو) آليات المناهج النقدية التي يستعملها في دراساته، و التي لم يتقيد بها نهائياً. بالإضافة إلى تجاوزه بعض أنواع الكتابة و نظرية الأجناس الأدبية العربية مثل عدّه كتاب "أسرار البلاغة" للجرجاني قصة أصلية، فضلا عن انتهاجه مبدأ المغايرة، يجعلنا نلمس سمة بارزة في مقارباته النقدية تتمثل في "شعرية الخرق".

لا ينحصر اهتمام الناقد بما هو حديث في تلك المناهج و النظريات الغربية مثل (التأويل و آليات التفكيك و النقد الثقافي، البنيوية، السيميائية و بعض مقولات نظرية القراءة و التلقي ...) و كل ما تزخر به الثقافة الغربية على اختلاف منابعها فحسب، و إنما يشمل أيضا تغير مساره النقدي و توجهه نحو دراسة القضايا المعاصرة كالأدب الاستعماري و الأدب المغربي و اللغة ... لكن هذه التطورات لم تمنعه من الاهتمام بالتراث العربي و خاصة السرد مما يدل على تخصصه في هذا المجال.

إنّ حفر (كيليطو) في خصوصية متون الشعرية العربية، و تقلبه بين الأدب و اللغة و الثقافة، المركزي و الهامشي، جعل الخطاب النقدي يسير نحو إشكاليات جديدة تجمع بين الأدبي و الثقافي، كما تجمع بين النقد المنهجي و لذة التحليل، ممّا جعل تجربته النقدية تتميز بسمة الإبداع، حيث يقوم بواسطة لغته الإبداعية بنسج خيوط تفضي في الأخير إلى قصة أو حكاية أو مسرحية، فيتداخل التحليل بالسرد، و يتجلى هذا في نص "من شرفة ابن رشد" و قراءاته لكتاب "ألف ليلة و ليلة".

ينتهج (كيليطو) في قراءاته و استنتاجاته طريقة نقدية متفردة، يمكن وصفها بالماكرة في بعض الأحيان لأنه يمزج فيها الحقيقة بالمتخيل و الواقع بالحلم و القريب بالبعيد و الحديث بالقديم، ممّا جعل تجربته النقدية تتميز بجديتها و طرافتها تغري أي باحث بالدراسة.

إن الخوض في مناقشة مثل هذا الموضوع ينجر عنه جملة من الصعوبات و العراقيل التي قد تضعف من الوصول إلى أهدافه و بعض الغايات التي توخّاها، ذلك أنه من العسير الإحاطة بكل أبعاد مشروع عبد الفتاح كيليطو النقدي بالنظر إلى تنوع مواد المدونة، و انفتاح أعماله على أكثر من مجال، فضلا عن

الاضطرار إلى العودة إلى مدونات التراث العربي، بالإضافة إلى تعدد المواضيع المطروحة في المؤلف الواحد، فكيليطو لا يخص كل كتاب بموضوع واحد، ممّا يصعب مهمة الباحث الذي يجد نفسه أمام تخصصات عدّة وحقول معرفية متشعبة و مرجعيات مختلفة ينبغي الإمام بها.

و أيا كان الأمر فحسبنا أنّنا حاولنا و عسى أن نصيب أكثر ممّا نخطئ، و أخيرا أتقدم بالشكر إلى الأستاذة المشرفة الدكتورة "سليمة لوكام" على رعاية هذا البحث، و على ما قدمته من إرشاد و توجيه طيلة مسيرة البحث، كما أتوجه بالشكر لكل من قدم المساعدة في سبيل أن يكتمل هذا الإنجاز العلمي على صورته هذه. و الله الموفق للصواب.